

إعادة إحياء وسط العاصمة تونس العاصمة تونس، تونس

تونس مدينة متوسطية شهدت تحولات حضرية كبرى في أواخر القرن التاسع عشر عندما كانت محمية فرنسية. وبالقرب من المدينة العتيقة لهذه العاصمة المتوسطية، تمثلت أحد تلك التحولات في التصميم الجديد لمنطقة "فيل نوفيل" (أي المدينة الجديدة)، المعروفة أيضاً باسم وسط المدينة أو "باب البحر". وقد بُنيت هذه المنطقة على الجانب الشرقي للمدينة القديمة، بينما كانت محاطة من الجنوب والشمال والغرب بتحصينات ومقابر وحقول زيتون. وفي ظلّ خضوعها لأوّل قانون فرنسي للتخلص من النفايات، هدفت الخطة الشبكية المنظّمة والمنطقية إلى تغيير النمط الحضري التاريخي للمدينة القديمة المميّزة بأسوارها، فضلاً عن تغيير ملامح المدينة، وذلك من خلال التركيز على أولويات النظافة والتجارة. وقد تمّ التخطيط للمدينة الجديدة بالقرب من الجادة البحرية الاستراتيجية (التي سُمّيت جادة حبيب بورقيبة بعد الاستقلال فعلياً في عام 1956)، وغالباً ما يُشار إليها على أنّها شانزليزيه تونس. وأضيفت معالم جديدة إلى هيكلها الثقافية الراسخة، بما في ذلك مسرحين، وقصر روسيني، ومسرح البلدية. وبالتالي خلقت هذه التحولات الحضرية مساحات للقاءات ثقافية هامة بين إرثي المدينة المحلي والاستعماري.

وقد اتخذت تونس خطوة غير مسبقة للحفاظ على إرثها الاستعماري الذي غالباً ما يتعرّض للتخريب في بلدان شمال أفريقيا الأخرى لآته بثير ذكريات الاستعمار. ومع ذلك، يستحق هذا التراث الأكثر حداثة أن يلقى كل الاهتمام باعتباره وسيلة للتبادل الفني والمعماري والحضري المهم بين بلدان شمال وجنوب البحر الأبيض المتوسط. ومن الضروري إعادة إحياء هذا التراث لتحسين البيئة الحضرية وللحفاظ على الذاكرة المعقدة لمدن شمال أفريقيا. وقد جاءت الخطوة الرائدة التي اتخذتها تونس في التعامل مع جميع أنواع العمارة، محلية أم استعمارية، على أنّها تراث، بفضل الجهود التي بذلتها جمعية صيانة مدينة تونس (ASM) لزيادة وعي المسؤولين والجمهور تجاه النواحي التراثية، وخاصة بعد نجاحها منذ عام 1980 في الحفاظ على مدينة تونس. وبالنتيجة، أصبحت ضرورة تضمين تراث القرنين التاسع عشر والعشرين في مخططات حفظ التراث الشغل الشاغل للأخصائيين والسياسيين على حد سواء. وأثبت مشروع إعادة إحياء وسط تونس إمكانيات ذلك التراث الاستعماري بصفته قيمة ثقافية وسياحية واقتصادية للمدينة.

وفي عام 1988، أطلقت الحكومة التونسية مبادرة لتصنيف المعالم التاريخية التي كان يبدو أنّها آيلة للتداعي. وتضمّنت النتيجة بالتالي خمسة مبان عامة تحتل أهمية كبرى في التاريخ الحضري المعاصر لتونس والتي كانت أوّل مجموعة تُصنّف كأثار تاريخية منذ نيل الاستقلال. وعقب هذه المبادرة، أطلقت جمعية صيانة مدينة تونس مشروعاً يهدف إلى إعادة إحياء وسط العاصمة باستخدام نهج شمولي لتحديد نقاط الضعف في هذه المنطقة التراثية الحديثة الحساسة ذات القيمة العالية.

ومع ميزانية محدودة، تمّ تطوير النهج الحضري المتميّز لمعالجة القضايا المعمارية بحيث يراعي المعالم الرئيسية ويجدّد أيضاً الطابع الحضري للمساحات العامة في وسط تونس. وقام المشروع على خطة إحياء حضري لإعادة هيكلة 60 ألف متر مربع من المساحات العامة وتخصيصها بشكل أساسي للمشاة. وأعيد تأهيل أبرز المعالم والواجهات المتداعية لحوالي 130 مبنى بالاستناد إلى مبادئ توجيهية تقنية رائدة معمارياً وحضرياً. وأعطيت الأولوية للمساحات العامة كنقاط عقدية تعزّز التجربة الحضرية، كما أعيد تنظيم وتجديد كافة جوانب ساحة الاستقلال وساحة 7 نوفمبر على وجه الخصوص. ولإنعاش الحياة الليلية، قامت جمعية صيانة مدينة تونس بترميم كل وسائل الإنارة العامة حول موقع المشروع وأعدت تصميمها بحيث ازداد الأمن بشكل كبير وازداد بالتالي إقبال الناس على المنطقة. ولاستكمال كل هذه الإجراءات، درست الجمعية كل جوانب الموقع وأعدت تصميمه ليشكّل تجربة متواصلة وإيقاعية مع تحسين تجهيزات الشوارع والمساحات الخضراء. واعتنى مصمّمو المناظر الطبيعية بتوفير المزيد من الظلال خلال فصل الصيف، كما عزّزوا شكل الواجهات الحضرية والمناظر المفتوحة على جانبي الجادة، وخلقوا توازناً بين طرقات المشاة والمركبات.

وتمّ تنفيذ المشاريع من خلال الجهود التأهيلية المتقنة والدؤوبة للحرفيين المحليين في المقام الأوّل. كما شارك المهندسون المعماريون المحليون في العملية بدرجة كبيرة وأشرفوا على إعادة التأهيل. وجلبت جمعية صيانة مدينة تونس بعض هذه المهارات من خبرتها في ترميم المدينة القديمة، لكن اعتمدت أيضاً على مهارات جديدة، بما فيها اللوحات الزخرفية على سقوف المسارح التي عمل عليها فنّانون ورّسامون محليون. وبالإضافة إلى هذا البرنامج الوظيفي الناجح، زاد مشروع إحياء التراث الحديث من قيمة العقارات في المنطقة إلى جانب مستويات الأعمال في وسط تونس.

رأي اللجنة

تُعدّ عملية إعادة إحياء التراث العائد بنائه إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في وسط العاصمة تونس، أو باب البحر، مساهمة مهمة ومهمة لفهمنا المتغيّر للتاريخ الحديث للعالم الإسلامي، ولا سيّما للإرث الثقافي التي تركته الحقبة الاستعمارية.

وتكمن إنجازات جمعية صيانة مدينة تونس في أنّها حافظت على أهمّ معالم وواجهات تلك الفترة، والتي تمّ إهمالها وتدميرها في عدّة مدن إسلامية، واستخدمتها كحافز لتحقيق برنامج طموح وانتقائي يهدف إلى إنعاش الاقتصاد. ولم يخلق المشروع منطقة حيوية ومزدهرة فحسب، بل أفضى إلى فهم أعمق وأكثر دقّة لتاريخ تونس الحديث دون تمويه طبيعة الاستعمار.

وبنفس القدر من الإتقان والتأثير، حوّلت الجمعية، وهي منظمة ملتزمة ذات إمكانيات متواضعة، ما اكتسبته من معرفة تقنية في تجربتها السابقة للحفاظ على المدينة القديمة إلى عملية إعادة إحياء وسط تونس. وتمّ التشاور مع المجتمع المحلي خلال العملية لضمان استفادة الشركات القائمة من هذا التجديد وللحرص على أن تكون عملية مستدامة. وقد انعكست هذه الأهداف في تأمين تمويل مبتكر للمشروع، وفي تدريب الحرفيين المحليين على كيفية تنفيذ أعمال الترميم.

وخلال الحقبة الاستعمارية، كانت العديد من البلدان الإسلامية مركزاً للتجارب الحداثيّة، وغالباً على يد مهندسين معماريين أوروبيين شباب ذات أفكار متطرّفة. وتعكس حساسيّة وطموح عملية إعادة إحياء وسط تونس كيف يمكن للبلدان الإسلامية أن تلعب الآن دوراً مبتكراً ومؤثراً بنفس القدر في الحفاظ على التراث الحديث.























